تـوطئـة

لم يكن غرضي من تأليف هذه الدراسة مجرد التعريف بثلاثة من أديان الأقليات الثانوية المغمورة الموجودة في إقليم الشرق الأوسط بشيء من التفصيل، بقدر ما كان هذا جزءًا من جهد لإلقاء الضوء على بقايا راسبة من أنظمة دينية وعبادات غائرة في القِدم؛ بل ومنسية نسبيًا؛ كانت قد اعتنقتها أقوام وسلالاتٌ لم تترك الكثير من الشواخص للأجيال التالية سوى بقايا من معتقدات روحية وطقوس لم تزل حيَّة اليوم، ليس كأجزاء من الأديان الأصلية كما كانت معتنقة في قديم الأزمنة، ولكن كأجزاء ضُمت لعدد من الأديان "التوفيقية" أو التركيبية syncretistic religions من النوع الذي سيتم بحثه عبر الفصول القادمة.

أما فيما إذا كانت هذه الأديان التي تعتنقها أقليات صغيرة عدديًا، ذات دلالة ما بالنسبة للقارئ المعاصر، فان الأمر يبقى مرتهنًا بكيفية مباشرته هذه الأديان ودوافع تعمقه في تفحص جوانبها المتنوعة، تلك الجوانب التي تتموضع في قلب هذا العمل وتستحث المزيد من البحث والاستقصاء، ليس بهدف الوصف المجرَّد فقط، ولكن كذلك بهدف إلقاء الضوء على دلالاتها بالنسبة لقضايا

اجتماعية وسياسية معاصرة ترتبط بأزمات الشرق الأوسط الذي، للأسف، يغرقه العنف الطائفي والضغائن الدينية، حارمة شعوبه من إيجاد موطئ قدم لها في مسيرة ركب التقدم إلى أمام على نحوٍ موازٍ للتقدم الذي تحرزه شعوب العالم الأخرى. تبدو الصراعات الداخلية في هذا الإقليم الملتهب؛ خاصة الدينية والطائفية منها؛ كأنها تتناسل وتتوالد على نحو تسلسلي وتراكمي بلا نهاية منظورة، عاكسة عبر تفاعلاتها وآثارها المأساوية نمطًا توسعيًا من النمو والتشعب المضطرد عبر الإقليم اليوم.

وليس بأقل أهمية مما ذُكر في أعلاه، تبرز ملاحظة: كيف تتفاعل العواطف الدينية والطائفية وتتصاعد حتى تنقلب إلى ضغائن ومشاعر كراهية تصبُّ في بناء الجدران العازلة التي تبقى حابسة أغلب شعوب الشرق الأوسط في زنزانة "حلم الأسلاف" الرجوعي المتوثب إلى العصر الوسيط، وهي حال فكرية واجتماعية معقدة توصد كافة أبواب ونوافذ التحرر نحو آفاق مستقبل مشرق يعد بالسلام.

لا يتشبث هذا الجهد بتغطية جميع التقاليد الدينية للأقليات على مدى هذا الإقليم المترامي الجميل والمتداخل التفاصيل، فهو إقليم عصي على الاحتواء لأنه "إقليم المفارقات"؛ كما أفضّل أن أطلق عليه على نحو متكرر، بلا تعسف. والحق أقول، فإن هذه الأديان لا تزيد عن جوانب ومكونات من تعقيد شائك أوسع، تعقيد قوامه أنواع الأقليات الإثنية والدينية التي تشكِّل - مع الأغلبيات وتقسيماتها

الفرعية الثانوية - البِنى الاجتماعية لشعوب الشرق الأوسط. ولكن في دواخل هذا الفسيفساء المربك، تميز هذه الأقليات الدينية نفسها عن سواها من الأقليات عبر عنايتها باستقلال شخصياتها وحرصها على المحافظة على مسافات فاصلة بينها وبين الأغلبية، من ناحية، وبينها وبين سواها من الأقليات، من الناحية الأخرى. هي أقليات حريصة، كذلك، على حفظ مسافة فاصلة بينها وبين الأقليات التي غالبًا ما تنمو تفرعات أو تبرعمات من التقاليد الروحية الرئيسة التي غالبًا ما تقرن بالشرق الأوسط، باعتباره إقليم ظهورها إلى الوجود، كاليهودية والمسيحية والإسلام.

إن التعقيد الديموغرافي لأديان الأقليات إنما هو في الغالب، نتاج تفاعلات وتتابعات لا متناهية، أشبه ما تكون بالصندوق الصيني، المتشكل من طبقات تميط اللثام عن طبقات أخرى من الجماعات الدينية، بضمن تشعباتها من الطوائف والعبادات والمعتقدات الروحية الأخرى.

إن المعيار الأساس الذي اعتمدتُه لانتقاء ديانات أهل الحق والمندائية واليزيدية إنما هو - بغض النظر عن احتوائها على عناصر تعود إلى الديانات الرئيسة المشار إليها أعلاه - أنها أديان لا تقبل التصنيف في سلال عامة رئيسة كسلال اليهودية والمسيحية والإسلام، فالأخيرة هي أديان يحسم الباحثون تصنيفها في سلة "السامية" و "التوحيدية"، على نحو غائم ومغرق بالتعميمية. هنا لا نتعامل مع طوائف ولا مع تشعبات منبعثة من الديانات الرئيسة لأن

ما يعقد موضوع التصنيف إنما ينبعث من الافتراض الأساس الذي يفيد بأنها ديانات تركيبية الطبيعة، بمعنى أنها تجمع عناصر من مختلف الديانات التاريخية القديمة، الأمر الذي يفاقم من صعوبة حل معضلة الأصول والتصنيف.

بينما تتماهى أديان الأغلبيات السُكَّانية من خلال إحالة عقيدة التوحيد إليها، حكرًا، فإن أهل الحق والمندائيين واليزيديين إنما يتشبثون بذات العقيدة، ولكن من منظورات أخرى، منها منظورات قد تبدو لـ"الآخرين" مقلوبة رأسًا على عقب، منظورات تتطلب المباشرة من زاوية أخرى، زاوية تتناغم مع رؤى مختلفة وفلسفات كونية قد لا تتواءم مع ما غُرس في دواخلنا وما نتمسك به، توارثًا، بوصفه التقليد المقبول.

إذا ما شاء المرء أن يدرك أبعاد ديانات الأقليات التي نبحثها في الصفحات القادمة، يغدو من الضروري عليه أن يحرِّر نفسه من الأفكار المسبقة ومما عُبئ به من المفاهيم والتحاملات المتنوعة عبر محاولة تحرير الذات لتهيئة موقف فكري مُنقَّى من المفاهيم المسبقة والعدائية، وخالٍ من التطرف أو الغلو.

إن بقاء الأديان الثلاثة بداخل بيئة مناقضة كتلك التي تلف إقليم تركبه الصراعات الطائفية، إنما يلقي الضوء على أسباب التواصل والاستمرارية التي أتاحت لمثل هذه الأقليات تطوير أنماط سلوكية جمعية معينة تصب في تجنب الاضطهاد والاندثار والتذويب في آنية جماعات دينية أوسع.

لذا فإنه من المهم أن نبحث مثل هذه الأنماط السلوكية الجمعية التي طوَّرها المؤمنون بهذه الأديان الثلاثة عبر العصور، مع إشارة خاصة إلى الأدوار الاجتماعية والسياسية التي يمكن أن يضطلعوا بها للتعريف بمكانتهم الاجتماعية وإمكانياتهم بضمن مهاد مجتمعي أوسع.

إن جهدًا من هذا النوع لا يمكن أن يخلو من الجدوى لأنه يخدم في إلقاء الضوء على "الجانب الآخر" من الشرق الأوسط في سبيل تجسيده لعموم العالم وللمهتمين خاصة، فهو الجانب المعتم الذي لم يمط عنه اللثام بالكامل حتى اللحظة بسبب عدم منحه ما يستحق من اهتمام بدواعي غير مقنعة قد تكمن في طيات الأفكار المسبقة والتنميطات الخاطئة التي استزرعها في دواخلنا "حُرَّاس الأديان" الكبرى عبر الإقليم بواسطة أنظمتنا التربوية وثقافتنا الشائعة. ثمة إرادة واضحة المعالم ما فتئت ترمي إلى تجنب هذه الأديان والابتعاد عن رصدها وبحثها، وكأنها حقول ألغام لا ينبغي أن تطأها أقدام المهتمين.

لا يمكن للفصول التالية أن تدَّعي الإلمام بكل ما يتعلق بهذه التقاليد الروحية، فهذا ليس من مهمات الكتاب النهائية، خاصة وأن هناك من العقائد والطقوس والمسلمات التي ستتم الإشارة إليها دون مناقشتها على نحو كامل بسبب ما يشوبها مما هو غير قابل للشرح أو للعقلنة أو للإدراك المنطقي المبسط، وهي حال تنطبق على جميع التقاليد الروحية في العالم بلا استثناء. وللمرء أن يلاحظ أننا

قد عمدنا إلى ترك بعض العناصر والمُسلَّمات لهذه الأديان غامضة كي لا نحرم القارئ من فوائد "صدمة الوعي" المرجوة من كل بحث مجد. ثمة حاجة ضاغطة لحث القارئ إلى المزيد من البحث والاستزادة والإغناء، فهذا هو ما نتوخى تحقيقه في نهاية المطاف.

هنا تكمن جاذبية الموضوع، خاصة وأنه يعرض مسلمات القارئ ومفاهيمه المسبقة لتيار ثقافي "جديد"، تيار مستفز نسبيًا، لم يألفه من ذي قبل، تيار مستل من الزوايا البعيدة وغير المكتشفة للشرق الأوسط. هكذا يتحقق الإدراك، أي من محاولة القارئ، المثقل بالمفاهيم المسبقة والمنمطة التحرر منها عبر اضطلاعه بواحدة من أذكى أنشطة العقل الآدمي، ألا وهي أنشطة المقارنات والمقاربات: فعندما يتتبع القارئ متوازيات معينة ويقارن أفكارًا ومعتقدات بأخرى كانت تبدو له، طوال حياته، وكأنها الحال الطبيعية أو الصحيحة، فإنه لابد أن يعمد إلى إلقاء الضوء على حاجة الإنسان للدين وميله للعبادة، زد على ذلك ملاحظته ومساءلته ما يجري في العالم الغربي حيث يظهر أدعياء نبوة ومبشرين بأنظمة روحية جديدة يطفون على بشرة الحضارة الغربية من آنٍ لآخر عكسًا لمرض داخلي يعتمل في أعماق تلك الحضارة، مرض لم تزل أسبابه ترد إلى تراجع الحياة الروحية وإلى الحاجة الدائمة لأساس صلب للتيقن.

لأن هذه "الأديان الأخرى" التي نناقشها فيما يلى من الفصول القصيرة تبدو غير شائعة أو معروفة للقارئ العربي، فقد اضطررنا لإستعارة ألفاظ من لغاتها الأصلية، الأمر الذي قاد إلى الحاجة لتقديمها وشرحها للقارئ على نحو مبسط لمساعدته على فقه معانيها.

في هذا السياق لا بد لي من تقديم تعابير الشكر والعرفان لزوجتي الفاضلة، السيدة (لقاء صاحب الورد) التي كانت خير سند ومشجع لي منذ شببت حتى شبت. ولا مناص من أن أشكر عددًا من الأصدقاء المندائيين واليارسانيين واليزيديين الذين لم يترددوا في تقديم العون والمشورة لي على سبيل خدمة الحقيقة بقدر ما أمكن.

obeikan.com